المرأة والسياسة

بقلم عبد الحق فاضل

حين تلقيت ذلك الكتاب الكريم الذي أتاني من الاتحاد النسائي العراقي جال في خاطري ان ادبج مقالة أذود فيها عن حياض المرأة ، وأشيد بفضائلها ، وأدّعي ضرورة مشاطرتها الرجلَ أتراحَ حياته العامة وافراحها ، كشأنها في حياته الخاصة، ثم أسرد ما أثبته الباحثون من كفاياتها العقلية والخلقية مما يجعلها صنو الرجل حقاً وندّه عن جدارة، ذلك بأني من انصار المرأة، ولا سيما انني ما زلت عزباً .

ولكني رأيت اخيراً ان هذا كله لا يعدو تحصيل الحاصل واجترار آراء لم يعد يجهلها احد ، وانه اولى بي ان اعالج الموضوع من ناحية اخرى .

لقد طالما تجادل الكتاب واختصموا في امر الحجاب والسفور ، فانتصر قوم لهذا وقوم لذاك . ومرت ايام وتلتها ليال واذا بالموجة العالمية تجرفنا كما جرفت سوانا، واذا بالسفور ينتشر في العراق شيئاً فشيئاً ، دون ان تبشر به جمعية اوتعمل له هيأة او تفرضه حكومة، واذا بالحجاب يحتجب من تلقاء نفسه على مشهد من انصاره وخصومه . فالمسألة إذن مسألة زمن ، وقصارى انصار السفور ان استعجلوه قليلاً او كثيراً ليواكبوا ركب الحضارة العالمية كما فعلوا في تركيا وإيران ، وقصارى خصومه ان أخروه قليلاً او كثيراً ليختلفوا عن ذلك الركب كما فعلوا عندنا في العراق وفي غيره من الأقطار .

والأمر اشبه بهذا فيما يخص حقوق المرأة الأخرى ومنها مزاولة حقوقها السياسية مع الرجل على حد سواء . فذلك شيء سوف يتحقق يوماً ما ، لأن العالم كله سائر في هذا السبيل ، وما في وسع العراق او سواه ان يصد تياراً عالمياً يأتيه من كل جانب ، مهما حاول . ومعنى هذا ان الرجل ان لم يهب المرأة حقوقها اليوم عن طواعية فسوف يهبها غداً على كراهة . فليستبشر إذن انصار المرأة وليبتئس خصومها . فلسوف تنزل المرأة الى حومة البرلمان ، وتتسنم مناصب الدولة . ولسوف تهجر البيت ، وهو عشها الجميل او غير الجميل ، هجراً جميلاً او غير جميل ، لتعمل في المكتب او المصنع . ولسوف تترك اولادها بأيدي الخدم والمحاضن والمدارس الليلية فتحرم نفسها لذة الحدب عليهم وهناءة العناء في سبيل توفير الراحة لهم ، وتحرمهم هم ايضاً المقدار اللازم لهم من حنانها المغذي وقبلاتها المقوّية .

هل هذا خير ؟ هل هذا شر ؟ ما هنا وقت الافاضة في بحث ذلك ، ولكن الأمر الذي لا ريب فيه هو ان هذا الأمر سيتحقق من غير بد، سواء أكان خيراً ام شراً ، وسواء أرضينا ام أبينا — كما تحقق السفور او كاد على رضا من بعضنا وإباء من بعضنا . فالخير إذن ان نتقبله من الآن ونتهيأ له ، ونوجهه الوجهة الصالحة ، بدلاً من ان نظل قاعدين حتى يجرفنا التيار فيوجهنا وجهة قد لا نرضاها .

ان مساواة المرأة بالرجل امر سيتحقق لا محالة . ولكن متى؟

ذلك هو الأمر الذي يستطيع الخصوم ان يؤخروه فحسب ، والأنصار ان يقدموه فحسب . فيا خصوم المرأة . . لا بد مما ليس منه بد ، فلا تتعبوا انفسكم . ويا انصارها، جدّوا قليلاً ، فانكم واصلون . المسألة كلها مسألة وقت ، والوقت يتوقف على العمل .

سيدتي ، ان الحق الصراح بجانبك ، مع الاسف . واقول مع الاسف، لان المحق يتوهم أن كونه محقاً يكفي وحده لنيل حقه ، وقد رأينا ان اخيب الناس واشقاهم هم اولئك الذين يملكون الحق الصراح بجانبهم ، اذا كان ذلك كل سلاحهم . اياك ايتها الاخت المطالبة بحقوقها ان تظني ان كتابة مقال ، او القاء خطبة ، او استفتاء كاتب مثلي يناصر المرأة ، يجديك في نيل حقوقك فتيلاً . ان كثرة الكلام والخطب والمقالات تضر قضيتك ولا تنفعها ، اذا لم يدعم ذلك كله عمل ونضال . . وقد رأينا بعض قضايانا الكبرى كيف قتلها الكلام. إن المغبون المطالب بحقه اذا اكثر القول خفّت سورته وفترت همته . واذا احس التعب من كثرة ما تكلم ظن انه ادى واجبه نحو نفسه فقعد يستريح من عناء الجهاد .

ما عساك تريدين ان تقولي ، يا اختاه ؟

قد تقولين انه ليس من المعقول ان يعطى حق انتخاب النواب فلاح قروي او راع بدوي لم ير في حياته المدينة ولم يسمع بالبرلمان ولم يدر ما هو النائب ، وتحرمين منه انت بنت الحضارة ، المقيمة في حواضر القطر والمتتبعة لشؤون العالم. ولكن من ينكر هذا ؟

قد تقولين انه ليس من الحق ان يباح للرجل الأمي ان

يكون نائباً يشرع القوانين، وتمنعين انت الطبيبة او المحامية او الاديبة — المتخرجة في كبريات الجامعات. ولكن من يجهل هذا؟

قد تقولين انه من المضحك ان يكون لخادمك الحق في ان يكون نائباً او ناخباً، ولا يكون لك الحق ان تكوني هذا ولا ذاك، انت التي ربما كنت تتحكمين في زوجك السياسي الخطير وتشيرين عليه في شؤون السياسة وغيرها. ولكن، يا سيدتي، منذا الذي لا يشاطرك الضحك من هذا؟

سيدتي، لا تضيعي حقك بمحاولة اثبات حقك. ان محاولة الاثبات تفتح باب الجدل لخصومك، والجدل لا ينتهي. وما من قضية، مهما كانت عادلة منطقية واضحة، الا ولها خصوم يستطيعون ان يثيروا في امرها جدلاً لا ينتهي. ان حقك ثابت، وما عليك الا ان تأخذيه، ولا يمكن ان تأخذيه الا بالعمل.

ولكن كيف تعملين؟ ذلك يا اختاه امر اتركه لفطنتك. وما دامت المرأة تطالب بالمساواة بالرجل في حقوقها السياسية والعمل الى جانبه في مضمار الحياة العامة، فلتبرهن على مقدرتها على ذلك. ما من رجل عظيم الا كانت من ورائه امرأة، وما من رجل سعيد الا وقد اسعدته امرأة. ويا طالما اشقت المرأة كذلك من رجال ونغصت عيشهم. فنغصي يا سيدتي العيش على الرجل في حرب تحريرية اشبه بحرب العصابات البيتية، واجعلي اوقات راحته عذاباً، وفراشه قتاداً، وبيته جحيماً.. حتى يذعن للحق ويسلم لك من فرط شقائه بمقدرتك على اسعاده واسعاد المجتمع. خاصمي من الرجال كل من لا يعترف بحقك، قاطعي زميلك في العمل والمدرسة وكل مكان تجدين فيه زميلاً ذكراً. جادلي اباك، ناوئي اخاك، تجني على خطيبك، ناقري زوجك على الاخص وشاحنيه حتى يصل صوت استغاثته من بلواك الى عنان السماء، وحتى يهرب منك ليلقي بنفسه في النهر او يقذف بك في باحة البرلمان. قيل لي — والعهدة على الرواة من اصدقائي المتزوجين — ان المرأة هكذا تفعل اذا اشتهت ثوباً او حلية او نبتت في رأسها نزوة لا يريد زوجها، او لا يستطيع، ان يحققها لها.

اصنعي ياسيدتي ما تفتقه لك حيلتك الواسعة وذكاؤك العتيد (الذي يضاهي ذكاء الرجل) واساليبك البارعة (التي تفوق اساليب الرجل) لارغام الرجل على الاقتناع بحقك. ذلك بانه — ككل مسلط قوي — لا يقتنع بحق ضحاياه في التساوي به ومزاحمته، الا مرغماً

ولكن لا تنسي قبل هذا كله ان تؤمني انت بحقك وتقتنعي بصدق عزيمتك، فتبذلي في المطالبة بحقوقك السياسية من الجهد والاستماتة ما تبذلينه في المطالبة بالثوب الجديد والحلية المشتهاة.. على الاقل.

طالبي ياسيدتي وألحّي إلحاح الرجل الذي يطلب ما لا حق له فيه، فلا يبرح يطالب ويطالب ويطالب بكل وسيلة فعالة حتى يجعل باطله حقاً ويفوز به. إن ذوي الحقوق يتوهمون ان حقهم سيصلهم من تلقاء نفسه، فإذا كانوا أكثر فطنة حسبوا انهم سينالون حقهم من غير بد إذا استطاعوا اقناع غاصبيه بصحة دعواهم. ولكن المبطلين أشدّ فطنة من هؤلاء وهؤلاء جميعاً، لأنهم يعلمون انهم لا يمكن ان يظفروا بمطاليبهم الباطلة إلا بالعمل،.. ويدركون ان باطلاً وراءه مطالب دؤوب ملحاح أضمن من حق وراءه مطالب عاجز. فيا ليت المحقين يتعلمون من المبطلين!

سيقول لك خصومك ان أكثر النساء لا يصلحن للسياسة، فقولي لهم ان اكثر الرجال كذلك لا يصلحون لها، ولكن هذا لم يمنع الصالحين منهم من مزاولتها، فلماذا يمنع الصالحات، وقد أثبت التاريخ ان في النساء الحاكمات القادرات؟

سيقولون ان المرأة تقودها العاطفة وتغلبها على عقلها.. فقولي لهم ان الرجل يقوده الجشع ويغلبه على ضميره. فهل هذا خير من ذاك؟

سيقولون ان المرأة انانية متحيزة.. فقولي لهم: سوف نقتنع بذلك عندما يرينا الرجال إيثارهم ونزاهتهم.

سيقولون ان اكثر النساء لا يؤمنّ بهذا الحق السياسي لأنفسهن ويؤثرن البيت على المكتب.. فقولي لهم ان أكثر الرجال ايضاً لا يؤمنون بحق انفسهم في حكم البلاد ويؤثرون المقهى على البرلمان، وخوض معركة في النرد أو الشطرنج على خوض معركة للانتخابات.

سيقولون ان المرأة ضعيفة عقل ودين.. فبلغيهم سلامي، وقولي لهم ان الذين يقودون الأمم من الرجال ويهوون بها في جحيم من المجازر والتدمير يسمونها الحروب في سبيل اغراض سخيفة وأهواء ضالة — قد برهنوا على انهم اسخف من كل السخفاء عقلاً واضعف من كل الكفرة ديناً.

سيقولون لك ويقولون.. فقولي لهم وقولي. وصدقيني انه ليس في وسعهم ان يرموا المرأة بنقيصة إلا وكان في الرجل نقيصة توازيها او تربو عليها.

وثقي ان المستقبل معك.. يا اختاه.

عبد الحق فاضل